

وإقرار فضيلة الطاعة وبث روح الود والناصرة فيهم ؛ ثم يقول متوجهاً بالحديث إلى الفتح :

« وذكرك أبقاك الله أنك جالست أخلاقاً من جند الخلافة ، وجماعة من أبناء الدعوة ، وشيوخاً من جلة الشيعة ، وكهولاً من أبناء رجال الدولة والمنسويين إلى الطاعة والناصرة الدينية دون محبة الرغبة والرهبة . وأن رجلاً من عرض تلك الجماعة ومن حاشية تلك الجملة ارتحل الكلام ارتجالاً مستبداً ، وتقرّد به تفرّد معجب ... وزعم أن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام : خراساني وتركى ومولى وعربى وبنوى وأنت اعترضت على هذا التكلم المستبد وعلى هذا القائل التكلف الذى قسم هذه الأقسام وخالف بين هذه الأركان » . ويورد الجاحظ عقب هذا بعض ما رد به الفتح على ذلك الخطيب الداعى إلى التفرقة ، ويقول له : « فرعمت أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون الموازنة والكافّة والطاعة والناصرة والمحبة للخلفاء والأئمة » . ثم يشير الجاحظ إلى أن هذا الخطيب ذكر في معرض كلامه جملاً من مفاخر هذه الأجناس وجمهرة من مناقبهم ، وأنه لطّنب في ذلك ما شاء له الإطناب ولكنه « ألقى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم ، وأضرب عنهم صفحاً فلم يخبر عنهم كما أخبر عن حجة كل جبل وبرهان كل صنف ... » ويذكر الجاحظ — على لسان الخطيب أيضاً — مفاخر هذه الأجناس الأربعة سوى الأتراك ، فيطنّب في مزايا الخراسانيين والعرب والمولّى ثم الأتباء . ويتخذ من إهمال شأن الأتراك وسيلة إلى الحديث عنهم ؛ أى إلى إبراز رسالته الأولى في مناقبهم وهو يسلك إلى ذلك ألطف المسالك فيقول : « إن ذهابنا — حفظك الله — بعقب هذه الاحتجاجات ، وعند منقطع هذه الاستدلالات ، نستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك والموازنة بين خصالهم وخصال كل صنف من هذه الأصناف ، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أهل الخصومات في كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذى بينهم . وكتابتنا هذا إنما تكلفناه لنؤايد بين قلوبهم إن كانت مختلفة ، ولتزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولتخبر عن اتفاق أسبايهم لتجتمع كلمتهم وتسلم صدورهم ... » ولا يخلص الجاحظ إلى رسالته الأولى في مناقب الترك حتى يماود التمهيد لها والتمويه عن غرضه السابق منها فيقول : « وهم في معظم الأمر وكبر الشأن وعمود النسب حثيثون ، فالأتراك

رسالة الجاحظ

في مناقب الترك وعامة جند الفتح

للأستاذ محمود عزت عرفه

(تمة ما نشر في العدد الماضى)

مات الخليفة الواثق عام ٢٣٢ هـ وتولى بعده أخوه جعفر التوكل على الله ؛ وكان النزاع الذى طال أمده قد أحدث رد فعل في نفوس المصلحين ومحبي السلام ، فبذلت جهود جبارة للتوفيق بين المتنازعين ، وإزالة روح الحسد والتنافس التى طفت على العلاقة بين طوائف الجند ، ووشجت بنفوس الرؤساء من كل فريق . وكان على رأس هؤلاء المخلصين الداعين إلى الإصلاح نديم التوكل وصاحبه الأثير : الفتح بن خاقان^(١) الذى تقدم إليه الجاحظ برسالته في مفاخر الترك بعد أن أضاف إليها مقدمة قصيرة ملائمة . ولا شك أنه في هذه الفترة أيضاً زاد من عنوانها جملة « في مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ... إذ الرسالة الأصلية — بعد حذف المقدمة التى توجه بالخطاب فيها إلى الفتح — مقصورة على ذكر مفاخر الأتراك والإشادة بفضلهم على سائر الأجناس ، في حربهم وسياساتهم وصنائعهم وأخلاقهم ، وكل ما يكون موضع فخر وعمل تميز وتفاضل

والفتح من الترك ، فما بضيره أن يطنب الجاحظ في فضائل بني جنسه ؛ ثم هو من دعة الألفة والإصلاح فلا يضير الجاحظ أن يوطئ لرسالته بحديث في مزايا هذه الألفة يضمّنه من فضائل تلك الطوائف جميعاً ما يحمل كلامه أقوى في التأثير وأدعى إلى القبول بذلك خرجت الرسالة في قسمين : مقدمة في فصل التآلف وضرورة اتفاق الكلمة مع حديث في مزايا كل طائفة من طوائف الأجناس سوى الترك ؛ ثم فصل طويل في مناقب الترك خاصة ، وهو الرسالة القديمة بمينها ...

أما المقدمة المستحدثة فيبدأ الجاحظ فيها بالإشارة إلى ما يضطلع به الفتح بن خاقان من الدفاع عن الخلافة والترغيب في الالتفاف حولها ، والسعي إلى توطيد التآلف بين أنصارها ،

(١) أبو محمد الفتح بن خاقان بن أحمد وثيل بن خرطوج ، الترك . قال ابن النديم : كان من أولاد الملوك واتخذ التوكل أخاً وكان يقدمه على جميع أولاده . قتل مع التوكل ليلة قتل بالسيوف لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين بالتركية . هـ

خراسانية وموالى الخلفاء قصرة^(١) ، فقد صار قنصل التركي إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً »
وينتقل الجاحظ بعد هذا إلى رسالته الأسيلة ؛ ويدبىهي أن سطورها الأولى مما كتبه قبل تقديمها إلى الفتح بن خاقان ، لأنه يقول فيها بعد التسمية : « هذا كتاب كتبتّه أيام المعتصم بالله رضي الله تعالى عنه ونصر وجهه ، فلم يصل إليه لأسباب يطول شرحها ... »

ولا نستطيع بحالٍ ما أن نحدد مدى التحوير الذي أدخله في هذا الموضوع ، ولكننا نقول إنه تحوير ألجأته إليه الضرورة ، إذ لا أقل من أن يتوجه بالخطاب من المعتصم التوفى إلى الفتح الذي تحولت إليه الرسالة

ويبدأ الجاحظ حديثه عن مناقب الترك بمرد قصة غزوها أن حميد بن عبد الحميد^(٢) كان جالساً — مع جماعة أسامهم — في دار المأمون إذ خرج عليهم رسول من عنده فقال : يقول لكم أمير المؤمنين متفرقين ومجتمعين ، ليسكتب كل رجل منكم دعواه وحجته ، وليقل أبما أحب إلى كل قائد منكم — إذا كان في عدته وصحبه وثقائه — أن يلقى مائة تركي أو مائة خارجي ؟ ... فأجمع القوم على أن لقاء الترك أهون من لقاء الشراة ؛ إلا حميداً فإنه خالف هذا الرأي وبالع في التحويل من شأن الترك والإشادة ببطولتهم في حربهم . وعقد من الموازنة بينهم وبين الخوارج ما انتهى به إلى نصوب رأيه وتثبيت حجته

وبلغ الحديث المأمون فقال : ليس بالترك حاجة إلى حكم حاكم بمد حميد ! فإن حميداً قد مارس الفريقين ، وحميد خراساني وحميد عربي ، فليس للهمة عليه طريق ...

ويعضى الجاحظ إلى غايته من إعلاء شأن الأتراك فيذكر من عجائبهم في حربهم ومن طرائف أقوال الرواة والمحدثين عنهم كل ما تطرب له النفس ويطول به المعجب ؛ وهو لا يستشهد في كلامه إلا بأقوال رجال من ثقاة العرب والخراسانيين — سوى الترك — حتى يكون ذلك أبعد عن التهمة وأقوم بالحجة ، وأدعى إلى الاقتناع . فيحكى عن سعيد بن عقبة بن سلم الهنائي ، ويختم ما ينقله عنه بقوله : « فهذا قول سعيد بن عقبة

(١) في التماموس المحيط : هو ابن عمي قصرة وضم ، ومقصورة وقصيرة أي ذاتي النسب . ١٥

(٢) حميد بن عبد الحميد الطوسي من أشهر قواد العباسيين ، وهو والد سليمان بن حميد الذي قتل وهو عامل على سمرقند في عهد الرشيد . ووالد محمد بن حميد الذي قتل في حرب بابك الحارمي على عهد المأمون

ورأيه وحديثه ، وهو عربي خراساني . و يروى بعض ما يقصه نعامه بن أشرس ويعقب قائلاً : « هذا نعام بن أشرس وهو عربي لا يتهم في الإخبار عنهم » . و يروى أيضاً عن يزيد بن مزيد الشيباني ما وصف به الموقعة التي قتل فيها دُولُبا التركي الوليد ابن طريف الخارجي^(١) . ويقص عن قتيبة بن مسلم طرائف أخرى . ويرى الجاحظ خلال هذا بعض ما شاهده بنفسه فيقول : « وأنا أخبرك أنني قد رأيت منهم شيئاً عجيباً وأمرأ غريباً . رأيت في بعض غزوات المأمون سباطى خيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل : مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون محي ، المأمون وقد انتصف النهار واشتد الحر . فورد عليهم وجميع الأتراك جلوس على ظهور خيولهم إلا ثلاثة أو أربعة ؛ وجميع تلك الأخطا من الجند قد رموا بنفوسهم إلى الأرض إلا ثلاثة أو أربعة ! فقلت لصاحب لي : أنظر أي شيء اتفق لنا ؛ أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم^(٢) »

ولا يفرغ الجاحظ من حديثه في هذه الرسالة حتى يكرر النص على أنه إنما وضعها بغية التأليف بين القلوب وجمع الكلمة وتوحيد المقصد والغاية ؛ وأنها ليست من كتب المناقضات أو إظهار التبختر في العلم والاتساع في المعرفة ؛ لأنه لا يهدف إلى شيء من هذا ، وإنما هو يرى إلى التوفيق من أوجز طريق ، ويرى « أن القليل الذي يجمع خير من الكثير الذي يفرق » ...

... بهذا التصرف البديع تهيأ للجاحظ أن ينشر رسالته بمد أن يئس من إخراجها أو كاد ، فازداد بها فضلاً إلى فضل ، وارتفع معها مكانة فوق مكانة ؛ وهو لم يحرم مع ذلك أن يُمدد من الذائدين عن الوحدة ، الداعين إلى التآف والوثام ، المصلحين بين هذه الطوائف المتدابرة والفرق المتنافرة ؛ وتلك أعراض لا نستطيع الجزم بأن واحداً منها كان يجول بخاطرهم وهو يضع رسالته الأولى على عهد المعتصم .

محمود هزت هزته

(جرجا)

(١) المشهور في التاريخ أن قاتل الوليد بن طريف هو يزيد بن مزيد الشيباني نفسه ، وكان ذلك في مبارزة بينهما في وقعة المدينة قرب الأنبار عام ١٧٩ هـ

(٢) نفهم من هذا أن أول عهد المعتصم بمجنود الترك يرجع إلى أيام ولايته العهد في حياة أخيه المأمون ، وكان إذ ذاك والياً على الشام ومصر . ومن الثابت أن الأتبيين قام بأعداد بعض الثورات في مصر وبرقة بأمر من المعتصم على حياة المأمون .